الصراع آلية بناء تاريخي

الدكتور عبد الستار قاسم

2001/9/27

بدأت الولايات المتحدة أعمالها العدائية ضد العرب بشكل سافر مع تربع الرئيس هاري ترومان على عرش البيت الأبيض. دفعت الولايات المتحدة بكل قوة نحو تكثيف الهجرة الصهيونية–اليهودية إلى فلسطين وأبدت حماسا منقطع النظير لقيام دولة اليهود. هذا على الرغم من أن الرئيس روزفلت كان قد تعهد للملك السعودي بالوقوف على الحياد فيما يخص الغزو الصهيوني لفلسطين والحفاظ على صداقة أمريكا للعرب. لكن قوة الصهاينة المتزايدة على الأرض الأمريكية نقلت الولايات المتحدة نقلة عدائية متطرفة نحو العرب ودون أن يكون لدى أي رئيس أمريكي مبرر لتفسير هذا العداء.

منذ ذلك الحين والولايات المتحدة مصممة على عدم مهادنة محاولات التغيير على الساحة العربية وبقيت مصممة على إبقاء الوطن العربي متخلفا سياسيا واقتصاديا وثقافيا، ولم تتوان عن استعمال القوة من أجل تثبيت ما ترغب في تثبيته على الساحتين العربية والإسلامية. أنزلت قواتها في لبنان، وهددت مرارا بإنزال قواتها في الأردن، ودعمت إسرائيل عسكريا من أجل تعزيز قدراتها على إلحاق هزائم سريعة بالعرب، ولاحقت القوميين والمسلمين والشيوعيين وأعضاء الأحزاب والحركات الغيورة على مستقبل الأمة. وفوق هذا، قصفت ليبيا والعراق والسودان والقوات السورية في لبنان، ومدت عدوانها إلى دول إسلامية فحاصرت إيران وحرضت ضدها لتورطها في حرب طويلة وقصفت أفغانستان.

إنها مستمرة في ملاحقة العرب والمسلمين، وملاحقتها تشتد مع الزمن. لكن من الواضح أن الأمريكيين لم يسألوا أنفسهم عن الإنجازات التي حققوها حتى الآن. بالتأكيد كان يأمل الأمريكيون بإخضاع العرب والمسلمين وذلك بأن يكتفوا بالجري وراء لقمة الخبز ومتع الحياة دون أن يكون لهم شأن أو قيمة أو عزة. صحيح أن العرب والمسلمين لم يحققوا حتى الآن ما يحاول الأمريكيون منعهم عنه، إلا أن حدة المواجهة الأمريكية مع قوى التغيير العربية والإسلامية لم تخف وطأتها. كان من المفروض حسب التوقعات الأمريكية أن يستتب الوضع في بلاد العرب والمسلمين أو أن تخف حدة التحدي للوضع العالمي القائم، لكنه من الواضح أن كل السياسات الأمريكية المتعددة الأشكال لم تقد إلا إلى تأجيج حدة الصراع إلى أن انتقل إلى عقر دارها.

يبدو السياسيون في كثير من الأحيان أغبياء بحيث أنهم ينساقون وراء أهوائهم وتحيزاتهم وتحالفاتهم ويتركون المنطق التاريخي خلفهم وكأنه مجرد هرطقة مثقفين وأكاديميين. وعلى الرغم من وفرة المتخصصين في مختلف المجالات في الولايات المتحدة إلا أنها لم تصل بعد إلى الاستنتاج بأن سياستها في المنطقة عبر حوالي ستين عاما لم تنته إلى النتائج المرجوة. إسرائيل أقل شعورا بالأمن، والخشية من سقوط أنظمة عربية تعمل لحساب الولايات المتحدة ما زال قائما، وقدرة عرب ومسلمين على إنتاج أسلحة الدمار الشامل تعززت، والقوى الإسلامية أصبحت أكثر قوة وحشدا، والقوى القومية أخذت تبتعد عن الغوغائية لصالح تنظيم أكثر دقة وفاعلية.

هذا يضعنا أمام السؤال المطروح تقريبا على لسان كل عربي ومسلم والمتعلق بما ستتمخض عنه التطورات الحالية المنطوية على الحشود والصدام العسكري. هناك صحة كبيرة فيما يقوله جزء لا بأس به من الناس بأن دمارا سيحصل وأن نفوسا ستزهق وأن كثيرين ممن لا يعرفون شيئا عما يدور سيدفعون ثمنا باهظا. وعلى أية حال هذه نتائج مرتبطة بالحروب عامة. لكن المشكلة هنا أن هذا الصدام ليس مجرد صدام نزوي ولا هو من أجل غنيمة مادية أو غانية

ذات جمال وافر. إنه صدام متعلق باحترام الذات وطالبان تشكل أحد حلقـات مسـاره التـاريخي بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معها. يتطلع العرب والمسلمون نحو كيان يؤهلهم لأن يكونـوا مشاركين في صناعة الحضارة العالمية ويمارسوا حياتهم باستقلالية ضـمن تعـاون خيّـر مـع الآخرين. وحتى يفتحوا طريقا نحو ذلك فإنه لا مفر أمامهم سوى الصمود وتطوير أساليبهم وتنويع وسائلهم. وضمن منطق البحث عن الذات تصبح الخسائر هامشية ومتطلب لا يمكن الهروب منه.

هناك فارق هائل بين الباحث عن الذات وذلك الباحث عن الاستقرار. تتساوى الحياة مـع الموت بالنسبة للأول وربما يكون للموت قيمة أرقى، بينما تشكل الحياة بالنسبة للثاني قيمة عليـا يجب العمل باستمرار على تحسين ظروفها. ولهذا يبكي الثاني الخسائر والنفـوس بينمـا يتـرحم الأول على الذين سبقوه داعيا الله أن يلحقه بهم. ويبدو أن مشكلة الولايات المتحدة فـي المنطقـة العربية أن أعداد الناس الباحثين عن الذات تتزايد. وهذا من شأنه أن يشحذ العزيمة على تطـوير وسائل متعددة ومتنوعة من شأنها أن تُفهم الولايات المتحدة أن الاستمرار في العدوان لـن ينـتج غير الرد عليه. بالطبع هذا غير متعلق بتأييد هذا الشـخص أو رفضـه وإنمـا فقـط بـالتطور الموضوعي للصراع.

إن ما يؤجج الصراع في المنطقة هي تلك السياسة الأمريكية التي تقـوم علـى التحـدي الفوقي الذي يصل درجة الاستهتار بالأمة. تتصرف أمريكا حيال العرب بعنجهية وصلف وكأنهـا تريد القول بأنها الرب الذي رادّ لقدره. ومظاهر هذا التصرف يمكن تلخيصها بما يلي:

أولا: يسيطر الفكر الإخضاعي على مخطط السياسة الأمريكية في المنطقة وأصـبح مـن الواضح أن الولايات المتحدة لا تهتدي إلا بهذا الفكر في تعاملها السياسي. وقد عبر وزير خارجية أمريكا عن هذا التعامل بشكل تهديدي لأحد الحكام العرب الذي أبدى ترددا حيال دعم بلاده للحملة على العراق عندما قال له: "لقد وجدتم لتقولوا نعم" وفي مواصلة الاعتداءات الأمريكية اليوميـة على العراق ما يدعم ذلك. ترتكب الولايات المتحدة خطأً تاريخيا في مسارها الإخضـاعي لأنهـا تتجاهل تماما صعوبة إخضاع الشعوب والأمم بخاصة إذا كانت تملك مقومات التمرد والرفض. قد تنهزم الأمم وقد تخضع ولكن إلى حين، وبمجرد لعق جراحها وتدبير شؤونها اليومية تطل برأسها من جديد في تحد لأعدائها. فإذا كانت هذه العمومية التاريخية منطبقة على شعوب وأمم صـغيرة الحجم وذات طاقات محدودة جدا فهي بالتأكيد تنطبق على العرب والمسلمين الذين لا يحركهم فقط دافع احترام الذات وإنما أيضا الوازع الديني والطموح التاريخي.

ثانيا: تصر الولايات المتحدة على ضرورة بقاء الحذاء الصهيوني على رقاب العـرب. حتى في زخم التفاوض والتعبيرات العربية اللطيفة حول الحل السلمي ومـا يسـمى بحـق دول المنطقة في العيش بسلام يقف الرئيس الأمريكي معلنا تزويد إسرائيل بطائرات قتالية متطـورة أو بتعزيز التعاون في برنامج الصواريخ المضادة للصواريخ. ولا يتردد في أن يقول أن السلام فـي منطقة الشرق الأوسط لا يمكن تحقيقه إلا إذا كانت إسرائيل قويـة والميـزان العسـكري يميـل لصالحها. بمعنى أن السلام يجب أن يفرض على العرب بالقوة. وبعد ذلك يلوم الرئيس الأمريكي عربا يحاولون القيام بإجراءات نحو تحقيق توازن الرعب.

التصرف الأمريكي هذا يرفع من وتيرة التحدي العربي والإسلامي ممـا يـدفع بأنـاس كثيرين نحو التفكير في وسائل الدفاع عن الذات. لم تكن الاستكانة يوما ردا بعيد المدى على قوى معادية تفرض تحديات خطيرة، ومن المفروض أن دراساتنا التاريخية أعطتنا فكرة واضحة حول كيفية تصرف الأمم والشعوب إزاء أعمال الاستهتار بها وإذلالها. وضمن هذا البعد التاريخي تبقى الأوصاف التي يمكن إطلاقها على أعمال الرد على التحدي مسألة لغوية لا علاقة لهـا بالحقـائق الموضوعية إنسانيا وتاريخيا.

ثالثا: تصر الولايات المتحدة على تحدي العرب والمسلمين من خلال مواقف يومية مثل تصنيف المسلمين إلى متطرف ومعتدل وتفصيل أثواب للفئات الإسلامية حسب قربها وبعدها عن واشنطون. وكذلك مثل العمل الدؤوب على تثبيت الأنظمة العربية الاستبدادية الموالية لها على حساب حرية الإنسان وحقوقه. تشن أمريكا حملة مسعورة ضد المسلمين تحت غطاء من رفض التطرف والتعصب على الرغم من أن الرئيس الأمريكي طور معرفته ببعض آيات القرآن وأصبح لديه القدرة في إسداء النصح للمسلمين وربما إصدار الفتاوى مستقبلا. وأمريكا لا توظف سياسييها فقط في ملاحقة المسلمين وإنما عمدت إلى تمويل العديد من مراكز البحث والدراسات في بلاد العرب والمسلمين والتي تقوم بدورها بشن حرب داخلية على الإسلام.

أما بخصوص الأنظمة العربية فمن الواضح أن سياسة أمريكا لا تميز بين حاكم مستبد وآخر وإنما فقط بين موالي وغير موال. وهي لا مانع لديها أن تحترق الشعوب من أجل الإبقاء على مصالحها في الثروات الطبيعية والجغرافيا والخضوع السياسي.

وبعد كل هذه التحديات التي تفرضها أمريكا على العرب والمسلمين تبقى مصممة على أن الثورة في وجهها ووجه الصهاينة عبارة عن إرهاب. طبعا لا أقول هنا أن ما حصل في واشنطون ونيويورك من تفجيرات صحيحة أو خاطئة، وإنما أقول أنها جزء لا يتجزأ من مسار تاريخي يأخذ مجراه وتعززه السياسات الأمريكية. أمريكا تفرض الصراع، والصراع يفرض على العرب والمسلمين متطلباته، والمتطلبات تدفع باتجاه الفعل، والنتيجة لن تكون سوى تطوير الأداء العربي والإسلامي في مواجهة أمريكا بحيث يشتد الألم الذي يوقعه مع الزمن.

فكما رأينا عبر ستين سنة خلت، لم يخضع العرب والمسلمون واستمروا في تصعيد مواجهاتهم للتحديات بحيث أصبحت منطقتنا همّا أمريكيا متزايدا، وبدل أن يستتب لها الأمر أخذت الشكوك تساورها بخاصة بعد الضربة القاسية التي تلقتها. لم يجرؤ أحد من القوى العظمى في العالم على إلحاق إهانة علنية ولو بسيطة بالولايات المتحدة فظنت أن عنفوانها لا يمسه أحد. لكن حقائق التاريخ والتحدي والتحدي المضاد أقوى من كل الأوهام. بمعنى أن أمريكا تخدم قوى التغيير العربية والإسلامية إذا استمرت في حمل العصا مطاردة الناس في بلادنا. صحيح أن الخسائر تؤثر في النفس الإنسانية وتدعو إلى الحزن والأسى، لكن التطور التاريخي لا بد آخذ مجراه.